الفصل الخامس

(الخســـــران)

تمهيـد:

بعد أن ناقشنا في الفصول السابقة التنوير والتنوير المضاد، تقدم العقل والعقل المدمر للعقل، الرؤية الواحدية للتاريخ، وما يمكن أن يكون قد طرأ من تطور على فكرة التقدم، وما يمكن أن تكون قد واجهته هذه الفكرة من صعوبات.

أما في هذا الفصل تتناول الباحثة فكرة التقدم عند "أو'هير" بشكل مختلف، فسيكون الحديث هنا عن «الخسران»، أو ما يمكن أن يكون قد خسرناه في اعتقادنا في حتمية التقدم الإنساني؛ وهل هناك فعلًا من اعتقد أن ما حققناه من تقدم ما هو إلا رمزًا لضعف السمات الخاصة بحياتنا.

بالفعل، هناك من رأى ذلك، هناك هؤلاء الذين لم يقتنعوا بالتقدم، أو ما نعتقد في يومنا هذا أنه تقدم، حيث كان الاشتياق إلى ما خسرناه أو ما لا يمكن إيجاده على الأرض.

سيبدأ الفصل هنا ب»أفلاطون» وهو من الفلاسفة الأوائل ولكن - بالنظر إلى أفكاره ومحاولة تحليلها- يمكن أن نعتبره من الأكثر معاداة لمظاهر التقدم الحالي ويأتي من بعده «أرسطو» وهو الذي لم يعتقد أيضًا في التقدم، ثم سيذهب الفصل للحديث عن «أوغسطين» فكرة الخطيئة الإنسانية، ومن بعده عصر النهضة الأوروبية والبحوث الفلكية، وما أثر هذه البحوث على الدراسات الإنسانية، ثم سينتقل الفصل إلى أحد المفكرين المعاصرين وهو «نيتشه» وفترة التدهور الأخلاقي، وأخيرًا «اسولد شبنجلر»، ومناقشته لكتاب انحطاط الغرب.

تعتقد الباحثة أن هذا الفصل بمثابة نقلة جيدة تنقل البحث من مرحلة الفهم لفكرة التقدم، والصعوبات التي قد تكون واجهت هذه الفكرة، وبين الحلول التي يمكن أن تقدم لتجاوز تلك الصعوبات لاستكمال رحلة الإنسانية نحو التقدم.

١- أفلاطـون:

يبدأ "أو'هير" بالحديث عن الكهف الأفلاطوني يقول بوصف أفلاطون عن كهفه:

تصور طبيعتنا حسبما تكون أو لا تكون مستنير بالتربية، وفقا للوحة التالية، تصور أناسا في سكن سفلي، بشكل كهف، ومدخله، المنفتح المنور، يمتد على طول الواجهة. إنهم هناك منذ طفولتهم، مكبلو الساقين والعنق بقيود، بنوع أنهم لا يستطيعون التحرك في أماكنهم، ولا أن يروا غير ما هو أمامهم، لأن القيود تمنعهم عن إدارة الرأس. يلمع ضوء

نار مشعلة في البعيد على تله ورائهم، بين النار والسجناء طريق مرتفعة، وعلي طول هذا الطريق تصور حائطًا صغيرًا، شبيهًا بالحيطان العازلة، التي يقيمها عارضوا الرمي، بينهم وبين الجمهور، يظهرون فوقها ألعابهم(١).

كل مرة يتكلم فيها أحد المارين، أما تظن أنهم يأخذون صوته كصوت للظل الذي يمر. تفحص الآن كيف ستكون ردة فعلهم، إذا اعتقلوا من قيدهم و ابرئوا من جهلهم، وإذا جرت الأمور طبيعيا كما يلي:

لنحل قيود أحد السجناء. ولنرغمه على الانتصاب فجأة، على إدارة العنق، على السير، على رفع العينين نحو الضوء. كل هذه الحركات سوف تؤلمه، والانبهار سوف يعيقه على رؤية الأشياء التي كان يرى ظلالها منذ برهة. قلنا أنه منذ هنيهة لم يكن يرى إلا الأشياء بدون قوام. بينما الآن وهو أقرب إلى الحقيقة متجه صوب الأشياء الأكثر صدقا يرى بشكل أصدق(٢).

يقول "أو'هير" في الفقرة الأولى "أن من وجهة نظر "أفلاطون"، هذه هي الحالة التي يعيشها الأغلبية العظمى من الجنس البشري. فهم يأخذون الصورة الخيالية على أنها واقع، وليس لديهم أي معرفة بالعلل الحقيقية للأشياء، مثل الأفراد اليوم الذين يتحكم التلفاز ووسائل الإعلام العامة بخلفيتهم العقلية. بالفعل التلفاز، بتابعيه المفتونين والمتعصبين للصور البراقة والعواطف المصطنعة يعدوا أكثر تحقيق لمقاصد "أفلاطون" في الكهف أكثر مما يتخيله "أفلاطون" نفسه"(٣).

أما في الفقرة الثانية فيقول "ما لدينا هنا هو صورة واضحة للصعود من الوضع الإنساني العادي، الغارق في الوهم، الإحساس والرغبة، عبر تنوير تدريجي إلى حكمة حقيقية. في هذا الصعود، في المرحلة التي يفهم السجين فيها لعبة تحريك العرائس يمكن مقارنتها بالإنارة التي تقدمها العلوم الطبيعية. من خلال العلوم نبدأ في فهم أسباب ما نسلم به عادتاً. فتظهر نظرتنا للعالم المعتادة لتكون محدودة ومضللة، بطرق شتى"(٤).

يرى "أو'هير" أننا مازلنا في الكهف الأفلاطوني نتشدق بالأوهام وما يقدم لنا من وسائل الإعلام، نقنع بما يقدم لنا؛ في حين أنه يجب علينا الخروج إلى العالم الخارجي

---

(١) غاستون مير: أفلاطون، ترجمة: وربشارة صارجبي، المدرسة العربية للدراسات والنشر، سلسلة أعلام الفكر العالمي، ط١، ١٩٨٠، ص١٠٩.

(٢) غاستون مير: أفلاطون ،ترجمة: وربشارة صارجبي، ص ١١١.

(3) O’Hear, Anthony, After Progress, p.110

(4) Ibid, p.111

والبحث عن الحقيقة بأيدينا، حتى لا نكون كسجناء كهف أفلاطون، وأن ما نراه من ظلال هو حقيقة العالم.

يقول "أفلاطون" في كتابه الجمهورية:

فقد تبين من حوارنا أن القوة على التعلم مفطورة في نفس كل إنسان، وأن الآلة ora-gnon التي يتعلم بها تشبه العين التي لا يمكن أن تتحول من الظلمة إلى النور إلا حين يستدير البدن كله. وعلي هذا النحو لابد لهذه الآلة مع النفس بكليتها أن تتحول عن عالم الكون والفساد حتى تتعود تحمل النظر إلى الوجود الثابت، تقوى على البصر بأبهى جانب من الوجود وهو الذي نسميه الخير[١].

توجد هنا مشكلة ومفارقة فالكهف كما في الجمهورية بصفة عامة، يعد من ناحية تعبير عن نوع معين للتعليم، حيث يصبح عدد قليل من الأفراد حكمة حقيقية من خلال عملية طويلة ومؤلمة من التنوير. لكن بالصعود إلى الحرية الحقيقية، هل سيكون لدى الفيلسوف أي رغبة في إعادة غمر نفسه في العالم اليومي، للعودة إلى الكهف؟ بالطبع لن يكون كذلك. لكن هل لن يملكه ليساعد السجناء على تحسين مصيرهم، حتى ينيرهم أيضًا، وحتى يرشدهم إلى وضع أكثر سعادة؟[٢].

إن للفلسفة في جوهرها عملية توجيه، أو تحويل أو هداية النفس لرؤية الحقائق، ويسمي "أفلاطون" هذه العملية باصطلاح خاص هو Periagoge أو metastrophe، ويترجم هذا الاصطلاح بالفرنسية والإنجليزية بقولهم conversion، وأصل معناه هو التوجيه أو الإدارة، والمقصود إدارة النفس ملكيتها لتتجه نحو نور مثال الخير، وهو الأصل الإلهي لهذا العالم [٣].

طبقًا ل"أفلاطون"، لدى كل من الدولة والجنس البشري الفردي انقسام ثلاثي. تملك النفس البشرية جزء شهواني، وهو مصدر الغريزة والرغبة؛ جزء روحي وهو مصدر المبادرة والشجاعة؛ وجزء عقلاني، وهو مصدر الحكمة. عندما يحكم الجزئيان الآخران من خلال الجزء العقلي، يكون الشخص سعيد وقانع. تكون الغرائز محكومة، وتتوجه شجاعتنا نحو غايات إيجابية لذلك لا تكون غاضبة، متسلطة أو متعجرفة ونكون قانعين [٤].

---

(١) أحمد فؤاد الأهواني: أفلاطون، دار المعارف، القاهرة، ط ٤، ١٩٩١، ص ص ٧٩، ٨٠.

(2) O'Hear, Anthony, After Progress, p.112

(٣) أحمد فؤاد الأهواني: أفلاطون ، ص ٧٩.

(4) O'Hear, Anthony, op.cit, p.112

يقول "أفلاطون" في كتابه الجمهورية على لسان "سقراط":

يهيأ لي أن ما تحتاجه المدينة بعد الفضائل الثلاثة التي ذكرناها الاعتدال والشجاعة والحكمة ليس إلا الدعامة التي نشأت عنها هذه الفضائل وبفضلها تستمر في الوجود وهذه الفضيلة هي العدالة[١].

ويكمل:

فإن كنا نبحث عن أي الفضائل يؤدي إلى كمال مدينتنا أفلا يصعب علينا تحديدها حين نقول إنها في انقياد المحكوم للحاكم أم أنها في مبادرة الجند في عمل ما يجب عمله أم في حكمة الرؤساء أم في انصراف كل من في المدينة سواء كانوا أطفالًا أو نساءً أو عبيدًا أو أحرارً، حكامًا و محكومين إلى أعمالهم الخاصة دون تدخلهم في أعمال غيرهم [٢].

في المناظرة مع الكهف، سيكون الحكام الفلاسفة هم هؤلاء الذين حصلوا على فرصة التسلق خارج الكهف ورأوا الشمس. لذلك، هم لن يكونوا أفراد يريدون أن يحكموا في الكهف أو ينزلوا هنا على الأرض، لما في عقولهم من أشياء أسمى وأفضل. واقتراح "أفلاطون" هو أنه في المجتمع المتكيف بشكل كامل، مع كل طبقة من الأفراد تؤدي المهام الملائمة لها، سيكون عليهم الانصياع للحكم، من أجل الخير للمجتمع ككل، سواء يحبون ذلك أم لا[٣]. تمام مثل الشمس في قصة الكهف فإن العالم الذي ينظرون إليه يكون كاملًا وغير قابل للتغير، فهو "يتخطى" أي من الاهتمامات أو الرغبات التي لدينا كمجرد ميول إنسانية. إنه هو الذي يمنح الضوء لأي شيء أخر، والذي ينجذب إليه كل شيء، سواء يعرفه أم لا [٤].

إن "أفلاطون" كان مع الزمن، قد عمل على إيضاح فكرة نظام الأعداد ومعادلات هندسية يتوسط بين المثالات وبين الأشياء المادية. ففي الجمهورية لما تكلم "أفلاطون" عن العلوم الرياضية وعن العقل (dianoia)، الذي هو قوة معرفة هذه العلوم، كان يسمى موضوعًا صورًا أو مثالات، ولكن هذه المثالات لا علاقة لها هنا بالحقائق الوجودية العليا، التي تستحق وحدها أن تدعى موجودات[٥].

---

(١) أميرة حلمي مطر: جمهورية أفلاطون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1994، ص 26.

(٢) نفسه، ص ٢٦.

(3) O’Hear, Anthony, After Progress, p.113

(4) Ibid, p.114

(٥) الأب جيمس فينيكان اليسوعي: أفلاطون وسيرته، آثاره ومذهبه الفلسفي، دار المشرف، بيروت، ص ١، ١٩٩١، ص ٧٨.

ليس هناك سبيل بين العلوم الطبيعية والتنوير الأفلاطوني. فالعلم يتعامل فقط مع الآليات السببية، بدلًا من الأسباب والقيم، التي ليست فقط نظريات غير دقيقة وحدسية، مقارنة بالاستدلال الرياضي المكتمل والدقيق، لكن العالم الذي يتعامل معه العلم يعتبر عالمًا فيزيائيًا غير كامل، عالم يخضع للصدفة، الخسارة والفساد. العالم السفلي بعيد جدًا عن العالم الآخر حيث يمعن الفيلسوف النظر، حيث استدلالات علمي الحساب والهندسة المتقنان المتبلوران تعطينا تلميحًا، لأنه يمكننا أن نعرف ونثبت الحقائق المطلقة بشأن الأشكال، الدوائر، المثلثات، الأشكال رباعية الأضلاع الخالصة، حتى رغم أننا لم نختبر في الحقيقة أي من هذه الأشياء، لكن فقط الصور القاسية وغير المكتملة لها. كيف لنا أن نعرف ونبرهن تلك الحقائق، إلا بملاحظة العالم الأخر بين الحين والأخر، عالم الصيغ الحسابية الدقيقة، من ثم تدريب أنفسنا على دراستها؟ و بدراستها وبتحليل ملامحها الأخرى في تجربتنا، سندرك أن هذا العالم الآخر لا يعد فقط عالم من الإتقان الحسابي. إنه أيضًا عالم من العدل المطلق، والخير الكامل[(1)].

لقد كانت العلوم هي سبيل للمعرفة، أو كما وصفها "أفلاطون" صورًا أو مثالات، ولكن ليست حقائق وجودية عليًا، هي تعطينا تلميحًا، ولكن لا نبرهن على الحقائق إلا عن طريق العالم الآخر بين حين وحين، فالعالم الذي يتعامل معه العلم عالم فيزيائي غير كامل، ولا يمكن له أن يكون مصدر للحقائق.

كما أن الفلسفة السياسية عند "أفلاطون" واضحة بما فيه الكفاية، فهو يؤمن بنوع مطلق من الدكتاتورية المعتدلة يقوم بها قلة من أهل المعرفة والحراس هم الحكام الشرعيون لأنهم يعرفون مثال "الدولة الكاملة". أما أفراد الشعب العاديون فينبغي عليهم أن يتنازلوا عن حقوقهم وحرياتهم السياسية في سبيل للاستقرار والنظام المنسجم[(2)].

يقدم "أفلاطون" بالتأكيد بعض الأسباب القوية للاعتقاد بأن الحكام الديمقراطيين سيكونون عرضة لبعض السقطات الدقيقة والماكرة في كلًا من الشخصية والقيادة. فيما قد يكون الجزء الأول من علم الاجتماع النظري، يصف "أفلاطون" اضمحلال المجتمع من حالته الأفضل إلى الأسوأ. و بسبب الفساد المتأصل في كل الأشياء المخلقة، لابد أن يحدث تأخر، من وجهة نظر "أفلاطون"[(3)]. و من ثم فإن "أفلاطون" عدد لأي نوع من

(1) O›Hear, Anthony, After Progress, p.114

(٢) دلف رومنبسون، وجودي جروفز: أقدم لك... أفلاطون، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام المركز الإعلامي للثقافة، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ٢٠٠١، ص ١٢٠.

(3) O›Hear, Anthony, OP.cit, p.116

الديمقراطية فهو يربطها، في العادة بالفساد والعنف[١].

يعرض هنا "أو'هير" الربط بين "أفلاطون" ورأيه في الديمقراطية وما يحدث في أيامنا تلك فيقول:

يعيش الإنسان الديمقراطي من يوم إلى يوم، من أجل المتع اللحظية. فهو يرفض إخباره أن بعض المتع جيدة، أو بعض الرغبات شريرة. فهو يحرك رأسه ويقول بأن كل المتع متساوية وينبغي أن يكون لها حقوق متساوية، (أليس هذا بالضبط ما يتم إخبارنا به اليوم بواسطة الإعلانات، الصحافة المصغرة والتلفاز؟) ذلك، تمامًا كالمجتمع الديمقراطي، مليء بكل الأنواع- في احتفالية قوس قزح للتنوع، قد وصفت من قبل "أفلاطون" نفسه أنها كاللباس المنقوش- لذلك فالديمقراطية الفردية هي سيدة التحول والتنوع، تتعبد لكل نمط مختلف، فريسة لكل أسلوب متغير. في يوم نبيذ، نساء وغناء، والتالي ماء ونظام غذائي صارم[٢].

في سياق ما، في مذاهب الحتمية التاريخية عنده، يعد "أفلاطون" ببساطة الصورة المنعكسة للتقدميين. بالفعل، إن التسلسل الذي وصفه- الأرستقراطية، حكم القلة، الديمقراطية- كلها نفس الشيء. لكن ما هو في عصرنا الحالي هو "المسيرة الطويلة لكل إنسان" هو عند "أفلاطون" سقوط إلى التوسط والفوضوية وعليه، في قوانينه، هو عازم على التوقف قدر الإمكان بتحريم أي تغيير على الإطلاق في قوانين الدولة المنتظمة بصورة صحيحة. وربما تكون الديمقراطية هي الشكل الأقل سوءًا للحكومة[٣].

إن الخسران عند أفلاطون يتركز في إيمانه بنوع مطلق من الديكتاتورية المعتدلة يقوم بها أهل المعرفة والفلسفة، فالمجتمع المتكيف بشكل كامل، عليه الانصياع للحكم، من أجل خير المجتمع ككل. فهو رافض للديمقراطية ويعتبرها مرتبطة بالفساد والعنف، وغرض الديمقراطي هو السير في طريق التقدم، دون النظر إلى ما ينفع الناس.

وفي نظرية الكهف الأفلاطوني يأخذ الجنس البشري الصور الخيالية على أنها واقع، وليس لديهم أي معرفة بالعلل الحقيقية للأشياء، ولكن القدرة على التعلم، تعينهم على إدارة النفس وملكيتها لتتجه نحو النور أو الخير. وقد يعتبر "أو'هير" أن المفتونين والمتعصبين للتلفاز ووسائل الإعلام أكثر تحقيق لمقاصد أفلاطون في الكهف، وإن الفلسفة في جوهرها هي عملية توجيه أو تحويل أو هداية النفس لرؤية الحقائق.

(١) دلف رومنبسون، وجودي جروفز: أقدم لك... أفلاطون، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، ص ١٢٠

(2) O›Hear, Anthony, After Progress, p.117

(3) Ibid, p.119

٢- أرسطـو:

عاش «أرسطو Aristotle في الفترة من (٣٨٤ إلى ٣٢٢ ق. م)" كان تلميذ ل"أفلاطون" ولبعض الوقت معلم خاص لإسكندر الأكبر كما يعد أحد الفلاسفة الثلاثة العظماء في العصر القديم، ويعد أيضًا عالمها الأعظم[١].

وبينما لم يكن ل"أرسطو"أن يتبع "أفلاطون" في البحث عن كمال الأشياء بالكلية على أرض في عالم آخر[٢] لقد كرس "أرسطو" نفسه على البحث لعلوم مختلفة وخرج لنا بكتاب الهام: "السماع الطبيعي" وبكل بحوثه حول الطبيعة- الفيزياء التي ظلت أساس كل معرفة علمية حتى عصر النهضة الأوروبية[٣].

وهدف "أرسطو" من كل هذا الجهد الهائل بالبحث في كل ما هو فيزيقي طبيعي- فيزيائي-، هو ترسيخ الميتافيزيقا على الواقع لا العكس لأن الواقع كاختيار من اختيارات العقل الكلي أي "اللوغوس" أو الرابطة التي توجه جماع القوانين داخل حركة الصيرورة، هو الذي يفرض علينا حسب كل إمكانات الوجود هذا التواجد[٤].

وإذا نظرنا من وجهة نظر النظرية الأرسطية نجد أن جوهر النظرية يقر بأن نظرية التطور الدارونية بفكرتها عن الأجناس المميزة باستمرار تتم توجيهها بصورة أولية، ذلك كما اعتقد "أرسطو" أيضًا أن العالم يرشده الذكاء (أو الذكاءات) غير الشخصية والأبدية وأن الأجرام السماوية، التي تدور حول الأرض ، لديها الكمال الذي تفتقر إليه الأرض، بميلها نحو الفساد والاضمحلال[٥].

وفي جوهر الإنسان عند "أرسطو"، قد بدأ "أرسطو" بالتأكيد على أن الإنسان به جانب عاقل وجانب غير عاقل، وأن الأخلاقية لدى الإنسان إنما تبدأ حينما يستطيع الجزء العاقل السيطرة على الجزء غير العاقل والحد من تطرفه وميله إلى الشهوانية الحسية[٦]لذلك كان جوهر الإنسان هو عقليته كان الشكل الأسمى لحياة الإنسان هو ممارسة العقلانية في تأمل الحقائق الأبدية الإلهية[٧].

---

(1) O’Hear, Anthony, After Progress, P.122
(2) Ibid, P.122

(٣) هاني يحيى نصري: دعوة للدخول في تاريخ الفلسفة المعاصرة، ص٦٤..

(٤) نفسه، ص٦٥.

(5) O’Hear, Anthony, After Progress, P.122

(٦) مصطفى النشار: مدخل جديد إلى الفلسفة، ص٧١ .

(7) O’Hear, Anthony, op.cit, P.122

ورغم إيمان "أرسطو" بنفس رأي السفسطائيين القائل بأن الفضيلة مكتسبة، أي يتعلمها الإنسان، وليست فطرية كما كان يعتقد "سقراط" و"أفلاطون"، إلا أن "أرسطو" وافق الأخيرين على أن الفضيلة ينبغي أن يكون لها ماهية ثابتة متفق عليها ولا يمكن أن تكون نسبية تختلف من شخص إلى آخر(١).

إن الأخلاق عند "أرسطو" إنما تهدف إلى تحقيق غاية بغيرها يتعذر على الإنسان أن يقوم بفعل أو تصرف ومن هنا راح "أرسطو" يبحث عن غاية الحياة، (الخير الأقصى) الذي هو غاية في ذاته وليس أداة لغاية أبعد منه، وقد وصل "أرسطو" إلى أن السعادة هي ذلك الخير الأقصى، وهذا يعنى أن الناس يطلبون الخيرات الأخرى مثل اللذة والقوة والثروة والحكمة من أجل السعادة، ولكنهم لا يطلبون السعادة من أجل شيء أبعد منها، لذلك كانت السعادة هي الخير الأقصى(٢) ويوضح "أوهير" أن السعادة بكلمات أخرى هي ممارسة الفضائل.

ومن جانب آخر لم يكن «أرسطو» يعتقد في التقدم. ففي التخطيط الأرسطي للأشياء لا يمكن معارضة الطبيعة فما كان جيدًا يكون جيدًا للأبد وموجودًا للأبد على عكس السماوات، المخلوقات والمؤسسات الموجودة على هذه الأرض السفلى مشتملة على أنماط السياسية، جميعها تخضع إلى دوائر التعميم والفساد. لذلك، يوجد تغيير لكن لا يوجد افتراض بأن ما يأتي بعد ذلك يكون أفضل مما جاء سابقًا(٣).

لقد ذكر "أرسطو" أن التأمل الفلسفي هو أعظم نشاط تستطيعيه الموجودات الإنسانية، ولكن أعتقد أرسطو في حقيقة الأمر أن هذا الضرب من التأمل ليس في مقدور سائر الموجودات الإنسانية فبعض الرجال يصنعون بحكم طبيعتهم ضمن العبيد، كما أن القدرة العقلية للنساء تكون أقل من تلك التي تكون لدى الرجال وأفضل ما يمكن أن يفعله الذين لا يستطيعون التفكير بأنفسهم أن يحاولون العثور على سادة يتولون التفكير لهم نيابة عنهم، هذا بالرغم من أن مجرد شعورهم باحتياجهم إلى هذه الحاجة يكشف في حد ذاته عن امتلاكهم للذكاء(٤).

وهنا يقول "أوهير" أنه مما لا شك فيه أن "أرسطو" قد جانبه الصواب في رفضه

(١) مصطفى النشار: مدخل جديد إلى الفلسفة، ص٧١.

(٢) محمد مهران رشوان: تطور الفكر الأخلاقي في الفلسفة الغربية، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط٢، ١٩٩٨، ص٧٥.

(3) O’Hear, Anthony, After Progress, P.123

(٤) أنطوني أوهير: الفلسفة في قرن جديد، ترجمة: وهبة طلعت أبو العلا. ص١٩٩..

للقدرة العقلية للنساء بالشكل الذي تحدث عنه، غير أنه ربما يكون على قدر من الصواب في حديثة عن التوزيع الإجمالي للقدرات العقلية لأن هناك حقيقة إمبريقية تؤكد على الأقل، عدم وجود مجتمع من المجتمعات على مدار التاريخ حدث أن مارس فيه معظم أعضاءه التأمل الفلسفي من النوع الذي تخصص فيه "أرسطو"[١].

على الرغم من ذلك، نحتاج إلى أن نضع في الاعتبار عدم المساواة التي توجد بين المخلوقات البشرية في الذكاء، في الفضيلة وفي الدافع بالطبع، في الممارسة فإن هؤلاء الذين ينفذون معظم القانون ويسيطروا على أي نظام ينزع إلى أن يكونوا أو يعتمدوا على الأقدر في مختلف المجالات لكن إلى أي مدي يجب على الاختلافات بين الأفراد المدركين مؤسسيًا لأطلال الديمقراطية ليس فقط بلا إجابة لكن بشكل أكبر بلا سؤال. كما نرى عند النظر ل"كانط"، معنا تبقى خرافة المساواة المجردة سامية، لكن هذا لا يجعلها أكثر من خرافة، نحن سعداء في اتهام الفيكتوريين بالحياء في الأمور الجنسية، هل يمكن أن يكون الرياء الأكبر في عصرنا هو ادعاء لا يعتقد فيها أحد حقًا، ولكن ربما لا ينافس عليها أحد، والتي ببساطة تزيد من الاستياء من جانب هؤلاء الذين من الواضح أنهم غير متساوين في المجتمع اللاطبقي المفترض؟[٢].

لقد نظر "أرسطو" في جميع أنواع الحكومات التي جربت في عصره، واستنتج أن الديمقراطية نظام مملوء بالمخاطر، فكان الحل الذي ارتضاه نظامًا يوفق فيه بين الأرستقراطية الأفلاطونية والنظام الإقطاعي المعتدل وبعض النظريات الديمقراطية، وفي هذا النظام ضمن لكل مواطن فرصة المشاركة في الحكم. وهو يرى أن طبقة العمال (الذين هم العبيد) يجب ألا يتولوا مناصب الحكم، كما أن طبقة الحكام يجب ألا يزاولوا أعمال الحرف أو يكسبوا شيئًا من المال، ويجب أن يتعهد الحكام بالتربية بالمعنى الصحيح الكامل ليصبحوا سادة الشعب، ويجب ألا يكون الفلاسفة حكامًا بل تقتصر مهمتهم على التعليم والإرشاد، لأن الفلسفة أساس لا غنى عنه في تكوين الرجل الفاضل[٣].

عند "أرسطو"، ما يميز الأشكال الجيدة للحكومة هو أي الحكام يحكمون من أجل المجتمع كله، والملكية غير العادلة- الأسوأ مصير على الإطلاق- تعد مستبدة، حيث يحكم

(١) أنطوني أو\هير: الفلسفة في قرن جديد، ترجمة: وهبة طلعت أبو العلا، ص ٢٠٠.

(2) O’Hear, Anthony, After Progress,, P.124

(٣) جورج سارتون: تاريخ العلم، ترجمة: توفيق الطويل، عبد الحميد لطفي، أحمد فؤاد الأهواني، عبد اللطيف أحمد على، عبد الحليم منتصر، أبو العلا عفيفي، محمد عبد الهادي أبو ريدة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ط٣، ٢٠١٣، ص٣٣٣.

الاستبدادي ببساطة من أجل غايته الخاصة، كما أنها ليست مساواة حيث يتم مكافأة الميزة المتساوية بالتساوي، وغير المتساوي بلا تساوي، فالكل يحصل على ما يستحق لا أكثر من ذلك، فالمساواة العددية الصارمة حيث يحصل كل فرد على نفس الشيء، عند "أرسطو" ليست عدلاً بل ظلمًا، لأنها تعني أن كل الأفراد لن تتم مكافأتهم طبقًا لميزاتهم، لكن سواء يستحقونها أم لا(1).

إن وجهة نظر "أرسطو" كما يوضحها "أوهير" ، بينما تكون الحكمة في الأمور العملية فقط ثمرة التجربة المخبر عنها والفعالة، فمن الدقة أن الأكثر والأحكم هم من يجب أن نلازمهم، على الرغم من المتعة التي قد تكون في الممارسات العقلية. فإن الاقتراحات السياسية التي أصدرها البالغين من العمر عشرين عامًا من مبادئ أولية مفترضة لن تفوز بالعديد من الموافقات الحماسية من التابع ل"أرسطو": فمن المحتمل أن تحتاج إلى الاستجابة وإلى تعقيد الشئون الإنسانية التي تجلبها التجربة فقط. إن طائفة من الشبان المحدثين والنسيان البيكوني للماضي الذي تؤيده الطائفة يعد إبطال حاسم للمصادرالأخلاقية والسياسية لديناوذلك من وجهة نظر "أرسطو"(2).

لقد تركزت خسارة "أرسطو" في محوالته لترسيخ الميتافيزيقا على الواقع لا العكس، وفي اعتقاد "أرسطو" أن العالم ترشده الذكاءات الأبديةوالتأمل الفلسفي أعظم نشاط تستطيعه الموجودات الإنسانية، ولكن هذا النوع من النشاطات ليس في مقدور سائر الموجودات الإنسانية. وأن طبقة العمال لا يجب أن يتولوا الحكم والفلاسفة لا يجب أن يكونوا حكاماً، لأن الفلسفة أساس في تكوين الرجل الفاضل. الكل يجب أن يحصل على ما يستحق لا أكثر، لم يكن "أرسطو" يعتقد في التقدم؛ ولا يمكن معارضة الطبيعة فيما كان جيدًا يكون جيدًا للأبد وموجود للأبد. ولكن "أوهير" رأى أن "أرسطو" كان مجانبًا للصواب في رفضه للقدرة العقلية عند النساء، وهو على صواب في حديثه عن التوزيع الإجمالي للقدرات العقلية.

٣- أوغسطين: الخطيئة الأصلية والمدينتين:

كان أول وصف وصفة "أوهير" ل«أوغسطين (٣٥٤ - ٤٣٠ب. م)» أنه كان مسيحيًا، فلم يشارك «أفلاطون» في تشاؤمه، ولم يكن إلهه الذكاء الأقصى الذي اقترحه «أرسطو»، لم ينحني «أوغسطين» لجبرية العالم القديم، كما لم يرى التاريخ كدائرة بلا نهاية وبلا

(1) O'Hear, Anthony, After Progress, P.125
(2) Ibid, P.126

أمل من اللامعنى المتواتر[١].

إن "أوغسطين" يؤمن بأن نظام العالم تمامًا كما نشعر به يمثل حضور العقل الإلهي ونشاطه غير أن "أوغسطين" لا يهدف من وراء هذه المجادلة إلى إثبات وجود الله وكينونته وليس هدفه هو الشعور بالله من خلال نظام العالم، من خلال بهاء المخلوقات وإنما يهدف "أوغسطين" إلى الوصول إلى الأخلاق والعقيدة، وفي مؤلفة الشهير "الاعترافات" نجده قد فكر في الوصول بجمال المخلوقات والنظر إلى نظام العالم على أنه نتيجة للنظام الأخلاقي[٢].

كان ميلاد المسيح، ووفاته، وبعثه هي اللحظات الحيوية في تاريخ البشرية. هؤلاء هم الذين عاشوا بعد المسيح عاشوا في الجزء الأخير من العصر، ما بين قدوم المسيح الأول والثاني. وكنا في طريقنا حيث يستطيع غير المؤمنين والوثنيين الانتظار والأمل فقط. علاوة على ذلك نحن نتطلع إلى الحدث النهائي للتاريخ، الحكم الأخير حيث تتم تسوية كل شيء وتجديده. في هذه النقطة، سيكون هناك انفصال واضح وكامل بين المدينتين، المدنية السماوية للإله، التي تأسست على حب الإله وازدراء الذات، والمدينة الأرضية المؤسسة على حب الذات وعصيان الإله[٣].

وبعبارة موجزة يرى "أوغسطين" أن الله الذي صنع هذا العالم، نزل من سمائه ليعيش في فلسطين مع الناس، ولا حياة فاضلة إلا بأتباع ما فعل هناك ولأن الإنجيل لم يتطرق إلى الحقيقة الفلسفية ولم يهتم بها، فكل سؤال فلسفي لم يطرحه الإنجيل هرطقة يجب قمعها؟![٤].

يقارن "أوغسطين" مدينة بابل، مدينة وصحبة الأشرار، مع مدينة القدس، مدينة وصحبة القديسين، لكن القدس هذه لا يمكن إدراكها بصورة كاملة على الأرض. فعلى الأرض تعيش كغريب وأسير في وسط المدينة الأرضية. فهي تشهد وعد الخلاص من الخطيئة أكثر من الخلاص نفسه، حتى رغم أنها تستطيع تطوير المدينة الأرضية في فترة وبأساليب محدودة[٥].

إن "أوغسطين" يرى أن الزمن حقيقة واقعية فيه حدثت الخطيئة والخطايا هي التي

(1) O'Hear, Anthony, After Progress, P.126

(٢) إبراهيم مصطفى إبراهيم: الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم، دار الوفاء الطباعة والنشر، الإسكندرية، ٢٠٠٠، ص٢٧.

(3) O'Hear, Anthony, op.cit, P.127

(٤) هاني يحيى نصري: دعوة للدخول في تاريخ الفلسفة المعاصرة ، ص١٠٦..

(5) O'Hear, Anthony, op.cit, P.127

تولد في النفس العذاب الوجداني الناتج عن الماضي، والقلق من المستقبل؛ وهذا العذاب هو ما يحدث فيها الانقسام وبالتالي فليس هناك إلا وسيلة واحدة تجعل النفس تنعتق من عبودية الزمن وهي أن تجد الزمن حقبة للخلاص، وأن تتملك انفعالاتها التي تضعف طاقتها، أو أن تنزع نحو صعود يضعها فوق الحوادث ويجعلها ثابتة في زمن من الدعاء والصلاة والتأمل. إذن، لا يُفهم الزمن بدون أبدية[١].

إن العناية الإلهية هي العقل الإلهي نفسه الذي يشمل في ذاته أشياء هذا العالم جميعًا، أعنى طبائعها وقوانين تطورها. ومن ثم فإن النظام الكوني بما أنه مجتمع في الأفكار الإلهية فإنه تحد مع العناية الإلهية، ومن حيث أنه معجزًا فهو مقسم أو محطم إلى شذرات إن صح التعبير- تتجسد في الأشياء نفسها التي تحكمها، ونظام هذه العناية الإلهية يمكن أن يسمى بالقدر ومن هناك فإن كل ما يخضع للقدر يخضع للعناية الإلهية، وفي استطاعتنا أن نواصل فنضيف أن أشياء كثيرة تعتمد على العناية الإلهية ولا تعتمد على القدر لأن العناية الإلهية هي المركز الثابت لمحيط الدائرة حيث تدور الموجودات، وكلما ابتعدنا عن نظام الزمان اقتربنا من الأبدية الإلهية[٢].

عند "أوغسطين" الإله لا يخضع لوقت أو تغير. نحن خلقنا من أجل الله ولدينا قدرنا المطلق خارج الوقت. مقارنة بالله والقدس السماوية، يعد كل شيء على الأرض غير معصوم وغير كامل. حتى الكنيسة على الأرض تحتوى على مخلوقات بشرية غير معصومة ومذنبة ولا يمكن توقع أن تكون كاملة. في هذا السياق إن لم يكن في آخر، يعد "أوغسطين" أفلاطوني، موضحًا كمال عالم آخر على حساب عدم كمال هذا العالم [٣].

لذلك فالمدينة السماوية على الأرض تعد حالة من الحج فهي تمتزج بالمدينة الأرضية. بينما تبقى على الأرض يجب أن تعيش تحت سلام وقوانين المدينة الأرضية. إلى الحد الضروري للحفاظ على الحياة، هذه المكرسة للإله تكون سعيدة بدرجة كافة لكي تعيش تحت السيادة الأرضية ولكي تستمتع بسلامها[٤].

هذه الآراء لم يقتصر تأثيرها على الكاثوليك وحدهم، بل تأثر بها حتى "لوثر" و"كالفن" وكثير من "البروتستانت" أيضًا، ولهذه الأسباب تبع تداعي "روما" التي

---

(١) جونو، برجوان: تاريخ الفلسفة والعلم في أوروبا الوسطية، ترجمة: على زيعو، على مقلد، عز الدين للطباعة، ١٩٩٣، ص٢٨٦.

(٢) اتين جلسون: روح الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، إمام عبد الفتاح إمام ، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط٣، ١٩٩٦، ص ٤٢٣.

(3) O'Hear, Anthony, After Progress,, P.128

(4) Ibid, P.128

عاش "أوغسطين" في بداية تداعيها، تداعي الفكر بسبب أمثاله مما سمح بالقول: بعصر الظلام الذي خيم على الغرب إلى ما بعد الإسكلائية قرابة الألف عام[١].

ولكن "أوهير" يكمل فيقول: لم يكن "أوغسطين" متفاجئ بذلك فكل مخلوق بشري وكل مؤسسة بشرية يعد مزيج من الخير والشر، فقد أدرك جيدًا الرجال القادرين على تحويل حتى أفضل المؤسسات، حتى الكنيسة نفسها، لتوفير غاياتهم الفاسدة، فالحياة على الأرض مملوءة بالإغراء، حتى بالنسبة إلى هؤلاء الذين هم في حج إلى مدينة السماء. يمكن إيجاد السلام الكامل والمجتمع الكامل فقط في العالم الآخر[٢].

عند "أوهير" كان "أوغسطين" مفكرًا للخسارة، ليس لأن وضعنا الحالي كان انحطاط من بعض حالات أفضل مبكرة في التاريخ. كانت خسارتنا واسعة لأبعد حد، بسببانحطاط الطبيعة البشرية في الخطيئة[٣].

يقول أوهير:

لقد لاحظنا بالفعل كيف تسيطرعلامات الفساد الأخلاقي على المدينة الأرضية: الحب الذاتي، الطمع، الغضب، وفوق كل ذلك الرغبة الجنسية، الدور التدميري الذي لعبة الجنس في حيواتنا ليس للرجال أي سيطرة على طبيعتهم الجنسية، وفريسة لنزواتها التي لا تقاوم. في النساء، يتناظر نقص التحكم الجيني والجنسي من خلال الأم ميلًا والطفل وأعماله ومن خلال الجنس تمر إلى الأجيال المستقبلية كل من الشهوة الجنسية وفساد الذين هم فريسة للرغبة هم في الصورة اليونانية القديمة مثل الأوعية ذات قاعدة نافذة والتي هي غير مملوءة على الرغم من الصب المستمر[٤].

ويضيف "أوهير" بأن الذنب الأصلي يعتبر هو الاتهام بالجنسية موضوعات شعبية بدرجة عميقة في نهاية الألفية الثانية.

يذكر "أوغسطين" في كتابة الشهير "الاعترافات" قوله: إن الطبيعة الإنسانية يمتزج بها كم كبير من الرغبات والنزوات والحوافز (الدوافع) بعضها مقصود وبعضها الأخر عفوي، ورغم أننا لا نعي هذه الأشياء كلها إلا أنها تعمل على تحقيق ذاتها[٥].

يكمل "أوهير" بأنه بالفعل تعد الشهوة هي الشعور الأكثر قوة المعروف لدى معظمنا

(١) هاني يحيى نصرى: دعوة للدخول في تاريخ الفلسفة المعاصرة ، ص ١٠٧.

(2) O’Hear, Anthony, After Progress, P.129

(3) Ibid, P.129

(4) Ibid, P.130

(٥) إبراهيم مصطفى إبراهيم: الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم ، ص٢٧..

والتي تجلب معها ليس فقط دمار الصلات الاجتماعية والمجتمعات بل الحاجة إلى سيادة الذات المخيفة في قوتها. ولكن لا ينبغي أن يكون البالغين العقلاء خاضعين لمثل هذه الإهانات. ينبغي أن يكونوا قادرين على السيطرة على أمور القلب بدون خجل، ولكن هذه بالطبع هي الفكرة. فالجنس عادة كريهة حيث استحالة جعل السلوك هادئًا، عقليًا بكلمات "أوغسطين"، إنه الهدف ذاته، النشوة الجنسية هي "غرق العقل"(١).

ليس في إمكان تفنيداته في محاولات منه لجعل المدينة الأرضية مثل الأخرى السماوية. في هذه الأيام، بعيدًا تمامًا عن الاستبداديات الواضحة للقرن العشرين نحن ندرك جيدًا قدرة الدول على التعدي على حيوات المواطنين الأفراد، الجحيم التي أنتج بنوايا فردوسية، وكذلك الطريقة التي يميل بها البيروقراطيين إلى خدمة اهتماماتهم الخاصة أكثر من هؤلاء في طوائفهم وفي المجتمع بصفة عامة. في الوقت الذي اعتمدت فيه تطورات القانون والمؤسسات الأوروبية ظاهريًا على تعليم اجتماعي كاثوليكي، نوع من الاجتماعية الناعمة البيروقراطية، ينبغي أن نرحب بقسوة إدراك "أوغسطين" للطرق حيث يمكن للمؤسسات المنتفعة أن تصبح مركبات لأنانية الجماعة(٢).

إن "أوغسطين" يؤمن بأن نظام العالم تمامًا كما نشعر به يمثل حضور العقل الإلهي ونشاطه، فلا يُفهم الزمن بدون أبدية. يعد كل شيء على الأرض غير معصوم وغير كامل، مقارنة بالله والقدس السماوية. وعليه فإن خسارة "أوغسطين" في أنه رأى كمال عالم آخر على حساب عدم كمال هذا العالم وإن كان أوغسطين مفكرًا للخسارة، فإن خسارتنا الواسعة لأبعد حد، بسبب انحطاط الطبيعة البشرية في الخطيئة. فينبغي أن يكونوا قادرين على السيطرة على أمور القلب بدون خجل.

٤- عصر النهضة الأوروبية:

عصر النهضة يمثل حركة فكرية نشأت أولًا في إيطاليا في القرن الرابع عشر الميلادي، ويتسم بالاهتمام بالأدب والفن الكلاسيكي (التقليدي) ويهتم بالنشاط الفردي والذهني (العقلي) والعلمي والفني. إذن فهي فترة في التاريخ الأوروبي تمتد من القرن الرابع عشر وحتى نهاية القرن السادس عشر الميلاديين. ازدهرت خلالها الأنشطة الفكرية والفنية، وهى من اللفظ الفرنسي Renaissance بمعنى إعادة الولادة Rebirth والتجديد Renewal ، ومن الفعل Renaitre أي يولد مرة أخرى To be

(1) O’Hear, Anthony, After Progress, P.131
(2) Ibid, P.131

born again ومن اللفظ اللاتيني renasci[1].

سادت في هذه الفترة حركة إحياء واسعة وبعث للتراث اليوناني والروماني القديم، ولكنه لم يكن بعثًا لشيء ماضي أو إحياء لعصر قديم، بل كان جوهره ولادة جديدة لتراث قديم، بمعنى أخر كانت عودة نقدية فاحصة للماضي ومؤسسة للمستقبل. فقد نظر الأوروبيون إلى تراثهم في عصر نهضتهم نظرة ناضجة لا تخجل من الاعتراف بالاختلاف الجذري بينه وبين حاضرهم الجديد، وكانت بذلك عاملًا حاسمًا للقضاء السريع على تخلفهم الفكري[2].

أراد «فيتروفيوس» في روما الأغسطينية أن يساهم في إثراء الإمبراطورية الرومانية من خلال إحياء الأساليب التقليدية للمعمار. يعنى هذا في الأساس أنواع المعمار والبناء اليونانية الكلاسيكية. فقد أعطى توجهات تفصيلية لبناء المعابد و الفيلات، ومن أجل تخطيط المدن بأن تقوم جميعًا على دراسة حريصة للنماذج اليونانية والقوطية[3].

تغير مظهر روما والمدن الإمبريالية من خلال مبادئ "فيتروفيوس"، وهى ظاهرة متكررة، من آن لأخر، في أوروبا وفى الولايات المتحدة الأمريكية، وفى القرون القادمة. وكانت أفكار فيتروفيوس وكتاباته الخاصة مؤثرة في مسارها الخاص[4].

لقد تم توظيف رؤية الماضي بشكل نقدي وواع من أجل الحاضر، بأن وضع الأوروبيون تراثهم الماضي في سياقه التاريخي، وكان على وعى بأنه مضى، وأدركوا بحس تاريخي صادق تلك الفجوة الزمنية التي تفصل بين الماضي والحاضر، ومع اعترافهم بالقيمة الحقيقية لتراثهم الثقافي وتقييمه في إطار عصره إلا أن هذا لم يمنعهم من الوعي بالحاضر الذي يعيشون فيه وإدراك متغيراته فتملكتهم رغبة جامحة في البدء من جديد[5].

تميز عصر النهضة بنظرة جديدة للإنسان والكون، فقد كان في مفهومه العام «عصر الإنسانية»، تميزه روح جديدة تفيض بالحرية والشعور جديد ومهيب بالفرد، وواقعية

(١) إبراهيم مصطفى إبراهيم: الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم ، ص ٤٥ .

(٢) عطيات أبو السعود: الحصاد الفلسفي للقرن العشرين وبحوث فلسفية أخرى، منشأة المعارف جلال جزي وشركاه ، الإسكندرية، ٢٠٠٢، ص ١٨٣ .

(3) O'Hear, Anthony, After Progress, P.132

(4) Ibid, P. 133

(٥) عطيات أبو السعود: الحصاد الفلسفي للقرن العشرين وبحوث فلسفية أخرى، ص ١٨٤ .

جديدة في تصور الطبيعة[١]. كان الشعور في انتعاش كلى جارى في ثقافتنا، والتي دفنت تحت الأرض مع الكنيسة في العصور الوسطى. ظهرت طائفة أخرى من الجمال الشعوري والبدني، رفضت الاعتراف بالدين من الأصل، كالإدعاء الجريء بأن الإنسان هو مقياس كل الأشياء، واختلاط متعمد للرموز الوثنية والمسيحية حيث يشار إلى الكنائس على أنها معابد والآلهة والقديسين بأنهم آلهة، تناولت الأساطير الوثنية والمسيحية والنماذج الأرضية بصورة مماثلة كرموز للعالم الصوفي الأفلاطوني الجديد. حكم هذا العالم كل من العاطفة والانسجام الذي سعى إليهما فنانين النهضة. كانت الإنسانية هي العالم الصغير الذي يفهم من خلاله العالم الكبير. والعكس صحيح، إن القرن الخامس عشر من منظور أوروبا، هو القرن الذي يتم فيه استعادة الحكمة القديمة السرية لكن المعروفة لدى القدماء والمفقودة في صورها المتوالية[٢].

ففي بعض المدن، مثل روما البابوية، نفذت مشروعات ضخمة لتشهد الأبنية الكبيرة لتمجيد إنجاز الإنسان، وخاصة في عام ١٤٥٤م التي جاءت لإيطاليا بفترة من الهدوء دامت نحو نصف قرن، بعد توقيع اتفاقية لودي للسلام. واقتداء بالتقاليد الخاصة بالصورة الدينية أجساد القديسين وأبطال العصور القديمة لخدمة أغراضها الخاصة (ومن الأمثلة المشهورة تمثال داوود لمايكل أنجلو في فلورنسا)، لحماية المدن وإبعاد الأعداء والشرور مما يهيئ نقطة تجمع نفسية في أوقات الأزمات[٣].

وليس من شك في أن هذا الاتجاه إلى الإنسان في عصر النهضة قد أدى أيضًا إلى التقليل من قيمة الدراسات الكونية الكوزمولوجية التي كانت تغلب على اهتمامات فلاسفة العصور الوسطى والأرسطيين منهم بصفة خاصة مما انتهى بهم إلى وفرة بحوثهم الطبيعة الفلكية على حساب الدراسات الإنسانية بوجه عام[٤].

كان توقير الماضي الكلاسيكي هو السمة المميزة للنهضة الإيطالية–منن وجهة نظر أو›هير–، والإيحاءات الكلاسيكية المتوالية والتي قدمت الكثير لإبقاء الفن والفكر الأوروبي. وعلى وجه الدقة هذا التوقير للماضي، مع الشعور بأن الجنس البشرى يعد

(١) عطيات أبو السعود: الحصاد الفلسفي للقرن العشرين وبحوث فلسفية أخرى، ص ١٨٤ .

(2) O’Hear, Anthony, After Progress,, P.133

(٣) فيليب تايلور : قصف العقول (الدعاية للحرب منذ العالم القديم حتى العصر النووي)، ترجمة: سامي خشبة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، سلسلة عالم المعرفة ، الكونية ، ٢٠٠٠ ، ص ١٢٨.

(٤) يحيي هويدي : قصة الفلسفة الغربية، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٩٣ ، ص ٤٥.

جزءًا من عالم كلى أكثر اتساعًا، الذي يجعل إنسانية النهضة حركة غير حديثة إلى درجة عميقة بالفعل، كان ذلك ضد توقير الماضي بصفة عامة، حيث كان بيكون يشن حملته، وبصفة خاصة ضد الولاء للسلطات الكلاسيكية. في بطانيتهم وأيضًا في اعترافهم بأن الإنسان مقياس لكل شيء. اعتمد التقدم العلمي على إسقاط هذا الإلهام كما أوضح "بيكون" بدقة. كانت فكرة النهضة واعتقاداتهم غير حديثة وغير علمية[1].

في إطار معين، كانت أفكار النهضة أيضًا غير مسيحية لكن هذا لا يجعلها غير صوفية أو مادية في إطار علمي. فقد كانت غير مسيحية فقط في المعنى حيث أن الأساطير المسيحية والوثنية ظهرت مثل مؤشرات لعالم آخر يسبق عالمنا الذي نحن فيه. عالم نرى سماته المميزة في أنفسنا وفي فهمنا وتقييمنا للعالم الفيزيائي. كان هذا نموذج مختلف تمامًا للإنسانية عن المذهب النفعي وعلم النفس العلمي غير الصوفيين للعالم الحديث[2].

لقد نظر الأوروبيون إلى تراثهم في عصر نهضتهم نظرة ناضجة لا تخجل من الاعتراف بالاختلاف الجذري بينه وبين حاضرهم الجديد، وكانت بذلك عاملًا حاسمًا للقضاء السريع على تخلفهم الفكري. لقد تميز عصر النهضة بنظرة جديدة للإنسان والكون، فقد كان في مفهومه العام "عصر الإنسانية"، تميزه روح جديدة تفيض بالحرية والشعور جديد ومهيب بالفرد

إن "أوهير" يرى أن هذا الاتجاه إلى الإنسان في عصر النهضة قد أدى أيضًا إلى التقليل من قيمة الدراسات الكونية الكوزمولوجية، مما انتهى بهم إلى وفرة بحوثهم الطبيعة الفلكية على حساب الدراسات الإنسانية. اعتمد التقدم العلمي على إسقاط هذا الإلهام كما أوضح بيكون بدقة. كانت فكرة النهضة واعتقاداتهم غير حديثة وغير علمية.

(1) O'Hear, Anthony, After Progress, p.134
(2) Ibid, P.134

٥- نيتشـــه :

يقول عنه أو›هير :

إن "نيتشه" أكثر ناقد لاذع ، وما يجعل "نيتشه" ناقدا لمجتمعنا هو ببساطة أنه لا يرثي مظاهر العالم الجديد. فهو يوضح أن القوى الصارخة للتحديث تحتوي على بذور عدم فعاليته(١).

فيؤكد "نيتشه" أنا نميل أساسًا إلى أن نؤكد أن أكثر الأحكام بطلانًا هي أكثرها ضرورة لنا، وأن الإنسان ما كان يمكنه أن يعيش بدون أن يدع الأوهام المنطقية تسود وبدون أن يقيس الواقع بمقياس ذلك العالم عن طريق العدد– وإنا لنؤكد أن الإنصراف عن الأحكام الباطلة معناه الإنصراف عن الحياة وإنكارها(٢).

يقول «نيتشه» في بداية عمله (ما فوق الخير والشر -١٨٨٦م) أن :

خطأ إصدار الحكم بالنسبة لنا لا يعد اعتراض بالضرورة. . . السؤال هو إلى أي مدى يكون تعزيز الحياة، الاحتفاظ بالحياة، الحفاظ على الأجناس، ربما حتى زراعة الأجناس. لكي تدرك عدم اللا حقيقة كشرط للحياة– هذا يعني بالتأكيد مقاومة مشاعر القيمة المعتادة بطريقة خطيرة(٣).

من خلال التراجيديا بصفة خاصة، ومن خلال الأساطير التي قامت عليها أعمال التراجيديا اليونانية، جعل اليونانيون القدماء رعب الوجود جميلًا من خلال حكايات الآلهة، فمنهم الفن المزيف، ومنهم معابدهم، وبذلك اهتز شعورهم بالجمال على حبل قوي يتدلي عبر الهاوية(٤).

و"نيتشه" في كتابة "هذا هو الإنسان" يقع التعريف على سقراط كآلة للتفكيك الإغريقي وكنموذج للانحطاط : "العقل" ضد الغريزة بأي ثمن كسلطة خطيرة تنخر وتخرب الحياة من الداخل(٥).

إن «سقراط» هو المدمر للتراجيديا اليونانية، وما يجعله ممكنًا ومحتملًا هو استخدامه للعقل من أجل إبطال دعائمها الصوفية. من جانب، يظهر أن الآلهة ليست أكثر من أو

---

(1) O'Hear, Anthony, After Progress,P.143

(٢) فؤاد زكريا: نيتشه، دار المعارف، القاهرة، ط٣، ١٩٩٦، ص ٦٤ .

(3) O'Hear, Anthony, After Progress, p.146

(4) Ibid , p.144

(٥) فريد ريش نيتشه: هذا هو الإنسان، ترجمة علي مصباح، منشورات الجمل، ص ٨١ .

أفضل من الموتى وأن الأساطير لا يمكن تصديقها[1].

إن الفهم الصحيح للحياة ونواتجها أعني الفهم الصحيح من وجهة نظر "نيتشه" ذاته – هو أن تعد الحياة "بمعزل" عن الحقيقة والبطلان معاً. وليس هناك أي مبرر لوصف نواتج الحياة بالبطلان ما دامت الحياة تسير في طريقها التلقائي غير عامدة أن تتفق مع العقل أو تختلف عنه، وما دامت القوى الحيوية بطبيعتها تنتمي إلى مجال آخر غير المجال الذي ينتمي إليه العقل. وعلى ذلك، فالقول إن البطلان أصل الحقيقة هو- بهذا المعنى- تعبير غير موفق، وإلا صح أن يقال أن الحقيقة أصلًا مستقله عن مجال الحقيقة تمامًا، أي بمعزل عن الحقيقة والبطلان[2].

إن البحث عن الحقيقة قد لا يكون أكثر من قناع للاشمئزاز، خطأ للرغبة من أجل إسقاط الخير والقديم، رغبة في إفساد حكمة العصور. إن السعي وراء الحقيقة يعد اختيار سهل. وخاصة في عصر مثل عصرنا- عند أو›هير- عندما أصبحت الحكمة تسعى لذاتها وحصل الأكاديميون والصحفيون على جوائز بعضهم البعض من أجل عدم خوفهم من ملاحقتها. وأيضًا فكر في نوع الشخصية التي تشجعه المهارة غير جديرة بالاحترام، السرعة العقلية، الذكاء والبراعة للتمسك بأي حكمة أو لياقة ذات خطوة بطيئة (لا يعني هذا أن الباحثين عن الحقيقة لدينا سعداء، صحيون أو محتشمون: كما توقع "نيتشه" بلا شك)[3].

إننا نعيش فترة من فترات التدهور الأخلاقي، وإلى هذه الفترة وجه "نيتشه" أعنف نقد وبخاصة في كتابه "إدارة القوة" وهذا ما أسماه "أو'هير" الرؤية السقراطية كمظهر- للظاهرة الحديثة الأوسع. وسبب هذا التدهور في رأيه هو سيادة "الروح الإنكارية" أو ما سماه "أخلاق العبيد". ومعنى هذه الروح وهذه الأخلاق هو أن القيم العليا لم تعد قيمًا بعد، وأن الناس قد أعوزتها الغاية من الوجود، وأعوزها الجواب على سؤالهم لأنفسهم: لماذا هم يحيون ويوجدون "فمياه الدين تنحسر وتترك ورائها الغدران والمستنقعات، والأمم تتباعد عن بعضها البعض ويسود بينها الشقاق والعداوة. . والعلوم تصبح أشتاتًا، وتقضي على أشد ما آمن به الناس واعتقدوه رسوخاً..."[4].

---

(1) O'Hear, Anthony, After Progress, p.145

(٢) فؤاد زكريا: نيتشه ، ص ٦٥ .

(3) O'Hear, Anthony, OP.cit, p.146

(٤) فؤاد كامل: أعلام الفكر الفلسفي المعاصر، دار الجبل، بيروت، ١٩٩٣، ط١، ص ص ١٨٨، ١٨٩ .

بدلًا من الحفاظ على الارستقراطية، الديمقراطية، والشفقة وحب التضحية. بدلًا من الاعتقاد في التقدم وقوة الشعور بالشاب المتوحد بدلًا من التواضع وقيم الجماعة، والصبر والصناعة. تقول نظرية «نيتشه» بأن كل شيء عظيم أو ذو قيمة في التاريخ البشري مأخوذ من وفرة الروح وإشراقها، وليس هناك شيء ذو قيمة يمكن توقعه من اعتبارات نفعية[١].

إن الإرادة عند "نيتشه" هي إرادة الخطر، وعنده أن الحياة بوجه عام معناها الوجود في حالة الخطر" والمعنى الأسمى للوجود هو الحياة في خطر. "إن السر، الذي به تجنى أعظم الثمار وتنعم بأعلى الوجود، هو الحياة في خطر"؛ ولهذا فإن على الإنسان أن يضع وجوده كله في مقامرة ورهان، حتى يؤكد ذاته إلى أعلى درجة" وأن يجعل الإنسان حياته في خطر، هذا نتيجة إرادة فياضة سخية[٢].

ويكمل «نيتشه» أننا نعرف جميعًا في قلوبنا أن إنجازنا الأكثر قيمة برز من خلال الصراع والمعاناة. وأن تشفق على الآخر. أن تجعله في راحة وتزيل عنه ألمه وحزنه، هو في الحقيقة الشيء الأكثر وحشية الذي في استطاعتنا القيام به. أن تزيل منه الشيء الوحيد الضروري. هي أن تقلل من قيمته[٣].

في رأي "أو'هير": حتى الآن في تقدم نهضتنا التنويرية، أليس هذا هو ما يكتشفه لنا علم النفس الخاص بنا؟ وأيضًا أليس التنوير تدمير لكل الأساطير التي سوف تجعلنا نبلاء، التي ستضع عقولنا وقلوبنا في مكان أسمى، التي ستنتج مسافة إبداعية بين الفرد والآخر، والتي ستبعد كل فرد عن حيوانيته، وهي التي ستسمح لنا بحب واحترام ما نقوم به ونصدقه بدرجة غير محدودة أكثر مما تستحق من الحب؟ هل يصف تقدم التنوير هذه الغنائم الضخمة العائدة من وراءنا؟ هذه هي رسالة "نيتشه" لنا بينما ننتقل إلى الألفية الثالثة[٤].

إن نظرية نيتشه تقول بأن كل شيء عظيم أو ذو قيمة في التاريخ البشري مأخوذ من وفرة الروح وإشراقها، وليس هناك شيء ذو قيمة يمكن توقعه من اعتبارات نفعية. كما أن الإرادة عند نيتشه هي إرادة الخطر، والمعنى الأسمى للوجود هو الحياة في خطر.

---

(1) O'Hear, Anthony, After Progress, p.148

(٢) عبد الرحمن بدوي: الزمان الوجودي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٣، ص ص١٨٢، ١٨٣.

(3) O'Hear, Anthony, After Progress, p.148

(4) Ibid, p.149

٦- شبنجلر:

يقتبس «شبنجلر(١٨٨٠-١٩٣٦م)» من عمله «تدهور الحضارة الغربية»[١] حديث «جويث» الذي يقول فيه: «المهم في الحياة هو الحياة وليس نتيجة الحياة» لا يعتبر التاريخ مخطط لبعض الأهداف المقدرة سلفاً.[٢] كما يعد عند "شبنجلر" الحضارة ما يظهر في نهاية الثقافة، عندما تصبح أشكالها ميتة و نفوذها متصاعد. الحضارة ذرائعية، مادية وعالمية، حيث تكون الثقافات محلية، روحانية ومثالية في إطار معين[٣].

ويقول أيضًا: إن ما يمثله الكوخ في نظر الفلاح تمثله البلدة في نظر إنسان الحضارة. كما أن لكل منزل أرواحه الأنيسة اللطيفة، كذلك فإن لكل بلدة إلهها الوحي الحارس أو قديسها. إن البلدة هي أيضًا كائن شبيه بالنبات ناء عن البداوة نأي الفلاحين عنها وعن الكون الأصغر المجرد. لذلك فإن تطور لغة شكل راقية هو مرتبط دائما بنمائها، ونحن لا نحتقر أو نحرر، أنفسنا أيضًا من جذور هذه اللغة إلا عندما نعيش في المدن العملاقة للمدينة. فالإنسان بوصفه إنسانًا متمدنًا، بوصفه بدويًا رحالًا مدركًا، هو أيضًا بكليته كوني أصغر دون ما منزل أو مسكن إطلاقاً، وهو حر ذهنيًا حرية الصياد والراعي حسًا وشهوة[٤].

يقول عنه "أو'هير": بدلًا من نموذج الشعب الصحيح، الذي ولد ونما على التربة، يوجد نوع جديد من البدو، يلتصق بضعف بالجماهير غفيرة، مواطن المدينة الطفيلي، بلا تقاليد، بكل معنى الكلمة، فاقد للدين، للماهر، غير مثمر، هازئًا في أعماقه بالرجل الريفي، وبصفة خاصة هذا النموذج الأسمى للرجل الريفي، رجل الريف المهذب[٥].

قد كان المؤرخون وعلماء الأجناس يعتبرون أن هذه الشعوب هي التي أنشأت الحضارة الغربية، وأنها وحدات خالقة للتاريخ، وأن الحضارة نتيجة الشعوب. ولكن جاء "شبنجلر" فقلب هذه النظرية رأسًا على عقب، فقال: "يجب أن نأكد بكل ما أوتينى من قوة أن الحضارات العليا هي شيء أصيل كل الأصالة أنبثق من أعمق أعماق الروح؛ بينما

---

(١) إن كتاب "تدهور الحضارة الغربية" هو صورة إجمالية لهيئة تاريخ العالم وقد ظهر الجزء الأول سنة ١٩٢٠م عند الناشر "بك C.H.Bek" في منشن. وهذا هو كتابه الرئيسي الضخم الذي أودع فيه فلسفته وظهر الجزء الثاني منه عند نفس الناشر سنة ١٩٢٢م.(انظر عبد الرحمن بدوي: اشبنجلر).

(2) O'Hear, Anthony, After Progress, p.153

(3) Ibid, p.153

(٤) ازوالد اشبنغلر : تدهور الحضارة الغربية ، ترجمة : أحمد الشيباني، دار مكتبة الحياة، بيروت، ج٢، ص ١١٥.

(5) O'Hear, Anthony, After Progress, p.153

الشعوب على العكس من ذلك، ليست، بصورتها الباطنية وبكل مظاهرها، المنتجة لهذه الحضارة، وإنما هي نتاجها، وهذا هو الاكتشاف الكبير الذي قام به "شبنجلر" وهو نفسه قد نعته بأنه اكتشاف حاسم(١).

إن النقود وعلم المحاسبة هما العملة العالمية للحضارة. فهي تضعف الدين والمؤسسات التقليدية؛ وهي تحل المحظورات والمحرمات؛ وهي تفكك الجذور والانتماءات القومية، وهي تستعمر أجزاء أخرى من العالم من خلال الفتح العسكري في البداية لكن بعد ذلك من خلال السلاح الأنعم ولكن الأكثر عذراً بدرجة قصوى وهو التجارة. ومع تفكيك المحظورات والصلات المحلية ويستخدم الإنسان الحديث معرفته وآلاته للسيطرة على الطبيعة وبذلك تتحكم آلته ومعرفته في أسلوب حياته بدورها(٢).

ويقول شبنجلر:

فالنقود أصبحت الآن قوة، وعلاوة على ذلك فهي قوة ذهنية مظهرًا وجوهرًا، قوة لا تفهم إلا بواسطة المعدن الذي تستخدمه، قوة تكمن حقيقتها في الوعي اليقظ للطبقة العليا من مكان ينشطون اقتصادياً، قوة تجعل أولئك الناس الذين يهتمون بأمرها، يعتمدون عليها اعتماد الفلاح على الأرض، وكما أن هناك فكرًا رياضيًا وآخر قانونياً، كذلك فإن هناك أيضاً فكرًا نقودياً(٣).

ويكمل شبنجلر:

إن كل اقتصاد أولى لما قبل التمدن هو أسير القوى الكونية إذ إنه يعتمد على التربة والطقس ونوع الإنسان، بينما أن النقود، بوصفها الشكل المجرد للمعاملة الاقتصادية داخل الوعي اليقظ، لا تزيد الواقعية من محدوديتها داخل الدائرة المحتملة أكثر من محدودية كميات العالم الرياضي والمنطقي(٤).

إن الحياة عند "شبنجلر"، كما هي عند "نيتشه"، نضال، هي نضال من أجل السيادة والسيطرة، والقوة الوحيدة التي تسودها هي قوة المصير، المصير القاسي الذي لا يرحم ولا يعرف غاية من تلك الغايات التي توهمها هؤلاء الحالمون. بل إن هؤلاء الحالمين هم أنفسهم في أحلامهم بالسلام الدائم مناضلون من نوع خاص، هم حيوانات مفترسة، لا

---

(١) عبد الرحمن بدوي: اشبنجلر، وكالة المطبوعات، دار القلم، بيروت- الكويت، ١٩٨٢، ص ٢٦٠.

(2) O’Hear, Anthony, After Progress, P. 154

(٣) ازوالد اشبنغلر : تدهور الحضارة الغربية، ص ١٢٩.

(٤) نفسه، ص١٢٩.

أنياب لها ولا مخالب قد عجزوا عن الافتراس فراحوا ينافقون ويحملون على الافتراس الذي حرموا منه مدفوعيين بالحقد العنيف الدفين على هؤلاء الذين أتوا القدرة على الافتراس. أنظر إليهم: إنهم أضعف من أن يقرأوا كتابًا في الحرب، لكنهم يندفعون بقوة هائلة إلى الطريق ليروا حادثًا جرى[١].

يؤكد "أو'هير" أن «شبنجلر» يهدف في التطور من الثقافة نحو الحضارة حتى تكون حتمية كما أنه يكتب « أنه سيكون على الفور لديه أشكال عقلية للباخرة السريعة ذات البناء الصلب. إن فكر «شبنجلر» يكمن في أن وقت الحضارة هو وقت الإنجاز الفني فهو ليس وقت الفن أو الثقافة. كما أن مقارنة «شبنجلر» المثير للأشياء وبين الثقافة والحضارة أحادية الجانب و تمييزاته قاسية جدًا. لدي أفكاره متضمنات غير سارة. ولكن لا يعني أي من هذه أنه لم يكن يشير إلى الخواص الحقيقية للحياة الحديثة.

والأمر الأكثر إثارة للتساؤل هو تحليله للتقدم. فبينما كان صائبًا في السؤال عن فكرة أن التقدم يعد حركة خطية متجهة من الحياة البدائية إلى الحداثة، فهو بالتأكيد مخطئ في التدليل على أن الحداثة، كما يصف، يعتبر مصيرنا الحتمي، و أن عالمنا مقيدًا بأن يكون أحد السفن البخارية أفضل من أن يكون كاتدرائيات. إنه بالطبع ليس كلاهما، ولكنه تفسير آخر لهؤلاء قصيري الرؤية الذين يؤثرون لأجل إدراك اتجاه التاريخ (حتى عند إنكار وجود أي منها في حالة «شبنجلر»)[٢].

إن خسارة «اشبنجلر» في التأكيد على أن الحداثة تعتبر هي مصيرنا الحتمي، والمهم في الحياة هو الحياة وليس نتيجة الحياة»، فوقت الحضارة هو وقت الإنجاز الفني وهو ليس وقت الفن أو الثقافة، فالحضارة هي ما يظهر في نهاية الثقافة، عندما تصبح أشكالها ميتة و نفوذها متصاعد، كما أنه لا يعتبر التاريخ مخطط لبعض الأهداف المقدرة سلفاً.

تعقيب: -

في نهاية الفصل وبعد عرض الشخصيات والنتائج، في محاولة لمعرفة ما خسرته الإنسانية في رحلتها نحو التقدم، كان كل فيلسوف من فلاسفة الخسارة يفتح أعيننا لنرى بعض عناصر تلك الخسارة، وفي محاولة من فيلسوفنا لإيضاح ما يمكن أن نكتسبه ليساعدنا في الانطلاق لاستكمال رحلة التقدم.

فعند أفلاطون يرى أننا خسرنا القدرة على التعلم مفطورة في نفس كل إنسان، كما رأى

---

(١) عبد الرحمن بدوي، اشبنجلر، ص٢٤٦.

(2) O’Hear, Anthony, After Progress, p. 156